

# الفوتوغرافية اللبنانية هدى قساطلي تسرد الشتات افتراضيا

## الحياة في المخيمات جرح غائر توثقه عدسة لبنانية على امتداد سبع عجاف



توثيق بصري لهندسة الأماكن وحياة اللاجئين اليومية

وتجدر الإشارة إلى أنّ مكتبة الصور الفوتوغرافية في مركز جورج بومبيدو - باريس حرصت منذ العام 1987 على اقتناء صور هدى قساطلي السالبة وهي تضم اليوم ما يقارب المئة منها. وفي العام 1992، استقبل معهد العالم العربي أول معرض خاص لقساطلي؛ وسرعان ما أصبحت أعمالها الفوتوغرافية تُعرض بانتظام، في عدد من الجاليريات أو المراكز الفنية في بيروت وأوروبا.



أليس مشغب  
الفن لا يمكن له أبدا  
أن ينحسر وسط أزمة  
وجودية

أما اختصاصها في علم التكنولوجيا فقد ساهم في شحذ وصقل نظرتها إلى التراث المعماري، والتقاليد الاجتماعية، والبيئة، والحياة اليومية؛ وتضافت دراستها الأكاديمية مع مهنة التصوير التي تمارسها وتُعنّن بصقلها منذ سن المراهقة، فاصبحت المرأة الأولى في لبنان الفنانة - المصورة.

الحياة في المخيمات: من هندسة الأماكن إلى حياة اللاجئين اليومية، ومن هوية السكان إلى المستقبل الغامض المبهم. هكذا، عمدت هدى قساطلي إلى كشف النقاب عن الواقع المشين، إلى مساعلة الضمائر، مسلطة عدستها في الوقت ذاته على تعظيم قدر الإنسان. ويذكر أن هذا المشروع هو بمبادرة من الفنانة هدى قساطلي وجمعية "أركانسيسال" المعنية بالميراث المعماري والحفاظ عليه.

وهدى قساطلي من مواليد 1960 بيروت. حازت في العام 1984 على شهادة في الفلسفة من جامعة باريس 1 بانتيون - سوربون. وفي العام 1987، قدّمت أطروحة دكتوراه في التكنولوجيا وعلم الاجتماع المقارن من جامعة باريس. لتعود في العام 1986 إلى مسقط رأسها، بيروت، وكوّنت حياتها المهنية للبحث والتصوير؛ فاختيرت خبيرة بوليسية لمشروع "مدينة" الأوروبي، وعيّنت باحثة ملحقية بجامعة البلنم وبوحدة البحوث متعدّدة التخصصات عن الذاكرة في جامعة القديس يوسف، وفي الوقت نفسه باحثة شريكة لمركز الدراسات والأبحاث عن الشرق الأوسط المعاصر.

وجودية، وإن ترتّب عن ذلك إيجاد سبل تعبير مختلفة له.

وعنوت "صالة أليس مغيب" على موقعها الإلكتروني معرضها الافتراضي "مخيمات اللاجئين في لبنان، عبء العوز والحرمان". ومن اللافت ذكره أنه بالتزامن مع هذا المعرض جرت متابعة النقاشات المنظمة عبر الإنترنت التي تم الإعلان عنها على الموقع الإلكتروني ووسائل التواصل الاجتماعي التابعة للغاليري.

### فنانة مصورة

قدّم هذا المعرض كجزء من العام المخصّص للفنانة اللبنانية هدى قساطلي، مجموعة من 100 صورة تم التقاطها بين عامي 2012 و2019 في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في برج البراجنة (قرب بيروت) ونهر البارد (قرب طرابلس)، وفي مخيمات النازحين السوريين في البقاع. ومن خلال المناظر الطبيعية والمشاهد الداخلية، وعبر تجسيدات للطبيعة المبتة وبورتريهات شخصية، تطرّق المعرض إلى المواضيع الرئيسية التي تطفئ على

أصبحوا ضحايا العمى الذي أصاب نخبة قومه.

ولدى سؤالها عن خاصية الشعب اللبناني أجابت "للبناي الذي شلّت حركته بسبب حجر مزوج ناجم عن تفشي وباء كورونا من جهة وعن إفلاس بلده التام من جهة أخرى، تبدّلت نظراته إلى مضيافية. هذه النظرة هي بالفعل بفطرتها الريادية، وإذا بها تعرضها على الملأ من خلال صورها الفوتوغرافية ضمن هذا المعرض الذي يسלט الضوء على شراسة الفقر المدقع وجمال براءة الطفولة البديع، وعلى الأفق المسدود على الحياة بأبسط تعابيره والأمل الملتفت إلى مستقبل باهر يفيض ضياءً".

وتستطرد قائلة حول هذه العودة "إن هذه الحالة المساوية التي عاشها ولا يزال العالم اقتضت أن تجعلنا كصالة نبحت عن مسار آخر نتابع فيه العمل الفني على هامش مسارنا العادي، لذلك قررنا إعادة فتح الصالة افتراضيا لتستمر الحياة بشكل آخر حتى تعود الأمور إلى مجاريها، وذلك إيماناً منا بأن الفن لا يمكن له أن ينحسر وسط أزمة

طالت أزمة وباء كوفيد - 19 كل مرافق الحياة البشرية، ولم تكن الحياة الفنية بمعزل عن آثارها السلبية. فتوقفت صالات العرض الفنية اللبنانية عن تقديم معارضها بانتظار انتهاء الوباء. لكن "صالة أليس مغيب" البيروتية وجدت الحل في العروض الافتراضية.



ميموزا العراوي  
ناقدة لبنانية

وقدّمت الصالة عودتها إلى العمل الفني بهذه الكلمات "نحن نعود اليوم إلى النشاط الفني من خلال معرض المصورة هدى قساطلي وعالمنا ينغمس في صمت شديد، يتخلله زعيق صافرات سيارات الإسعاف وسط حجر التجول. مسجونة ظهرت البشرية عاجزة تلتقي هذه الأسئلة: كم من الوقت سيستغرق هذا الحبس؟ كم ستكون كلفته؟ ماهي نتائجها؟ نتاجه؟ كيف ستكون الحياة بعد الحجر؟".

### حياة قاسية

تُجيب الصالة "في انتظار الأجوبة إبداع المصورة الفوتوغرافية اللبنانية هدى قساطلي والتزامها بقضايا لم تحد عنها إلى اليوم، وهي تراث بيروت والبشر وأحوالهم في زمن لا يرحم لا سياسيا ولا بيئيا ولا اجتماعيا. وما حاولت الصالة استكمله هو معرض شامل كان مقررا أن يشكل جزءا من احتفالية على مدار سنة 2020، ويضم ما التقطته عدسة الفنانة هدى

قساطلي، وأن يتزامن هذا المعرض مع مناسبة مئوية لبنان الكبير. وقد حدّدت الصالة مواعيد وصول هذا المعرض الفني/ السنوي كالتالي: من 14 أبريل حتى نهاية مايو الماضيين: "مخيمات اللاجئين، عبء عدم الاستقرار". ثم من 9 يونيو الجاري وحتى 25 يوليو القادم: "طرابلس الشرق، العاصمة الجامدة". يليه من 15 سبتمبر وحتى 31 أكتوبر المقبلين: "أشجار مقدّسة، أشجار منتهكة". وأخيرا من 10 نوفمبر وحتى 26 من ديسمبر المقبلين: "بيروت، أيقونات الغياب".



# محمد عفيفة جياكوميتي الكاريكاتير العربي

السعودية لأب وأم من قرى متقاربة جنوب فلسطين، منطقة الخليل، تحديدا. هجرنا إثرها إلى مخيم الدهيشة ببيت لحم، ثم نزحنا في العام 1967 إلى عمّان، تلتها غربة مطوّلة بالخليج العربي حتى عودتنا إلى الأردن في العام 1980.

اللوحة عند محمد عفيفة تأتينا بشكل عمودي ينطلق من أسفل إلى أعلى ليكون هذا الأعلى محور الرسمة عموما

كل ذلك يظهر في لوحاته - رسوماته الكاريكاتيرية التي نصّبها وجعه الضاحك الباكي الذي لن يندمل أبدا، رغم نجاحاته الفنية والتشكيلية العديدة التي وشّحت اسمه بجوائز عربية كبرى على غرار: جائزة ناجي العلي للكاريكاتير السياسي (2012) وجائزة محمود كحيل للكاريكاتير السياسي الممنوحة من الجامعة الأميركية ببيروت في العام 2018. في العام 1919 سال جيوفاي جياكوميتي (1868 - 1933) الرسام السويسري "ما بعد الانطباعي" ابنه البكر البروتو: هل تريد أن تصبح رساما؟ فكان جواب ابنه سوّالا أيضا، لنفسه وليس لابنيه: رساما أم نحّاتا؟ اليوم إن سالنا محمد عفيفة: هل أنت حقا رسام كاريكاتير؟ سنجيبنا رسوماته عنه: نعم، إنه جياكوميتي الكاريكاتير العربي.

لوحة رُسمت عام 1893، وصفها النقاد بأيقونة الفن الحديث، ورمزا فنيا لقلق الإنسان الحديث، ها هي تعود بشكل جديد في رسمة مُستوحاة لعفيفة، جسّد فيها صرخة مكتمة، محاصرة بين أربعة جدران، وكل من كان خارجها وغير محصّن، فهو إلى هلاك لا محالة.

وعلى عكس كل لوحاته الكاريكاتيرية المرتفعة إلى السماء، تأتينا لوحة "إعدام العمال" المستوحاة من لوحة "إعدام الثور" للفنان الإسباني فرانسيسكو جويبا، يشكّلها العمودي، لا محالة، لكن ما يدور في الأسفل هو محور اللوحة - الرسمة، هذه المرة، كيف لا والأسفل هو عنوان أدراننا ومساوئنا الجامعة إلى القتل والإبادة والفناء، بموجب أو دونه حتى؟

لوحة رسمها الفنان في يوم العمال العالمي الأخير، غرة مايو 2020، وفيها ربّما إشارة إلى الإعدام الجماعي الذي خلفه الوباء اللعين يتحالف غير معن من الرأسمالية القامعة للذات المتفردة، للملايين من البشر، الذين أحلتهم الجائحة إما على العطالة المؤقتة وإما الدائمة.

ولأن محمد عفيفة ابن عصره، وابن فلسطين المظلة على بحر الموت، البحر الأبيض المتوسط، نراه يرسم زورقا غص بعشرات المهاجرين، وهم في عباب البحر الفسيح، عيونهم شاخصة إلى السماء التي تمطر صتارات حاصدة لأرواحهم تباعا.

حنظلة ينظر إلى الأمام، فرغم اغتيال مبدعه، لا يزال ذاك الصبي الذي لم يبلغ سن الرشد بعد - ربما يبلغه حين تحرير الوطن - شاهدا على جرائم ضد الإنسانية لم يُرفع الستار عن نهايتها بعد.

لوحة "الصرخة"، ثاني أشهر لوحة فنية في العالم بعد "موناليزا" دافينشي، والتي جسّد فيها الفنان إيفارت مونك صرخة لشخص واقف على جسر، مثل فيها الفرع بملامح خائفة وسط سماء حمراء وبحر مسودّ غاضب.



«لا ناجي إلا ناجي» تخليد لحنظلة العلي

وأعوتها أنا بـ"لا ناجي إلا العلي"، ذاك الرمز الشامخ الذي أوجده ناجي العلي في الخامس من يونيو عام 1967 ليظهر بإحدى الصحف الخليجية في العام 1969، ممثلا في صبي في العاشرة من عمره، يعقد يديه خلف ظهره، في إشارة للفلسطيني المعذب والقوي رغم كل الصعاب التي تواجهه، فهو الشاهد الصادق على الأحداث، والذي لا يخشى في قول الحق لومة لائم.

لسم رصاص مُرتفع كحال كل رسوم عفيفة إلى السماء، ووقه

الكاريكاتير ذاك الفن الضاحك الباكي الذي ابتدعه الأوروبيون في القرن السادس عشر، كنوع من أداة ضغط على الكنيسة خلال الثورة الدينية التي عرفت بحركة الإصلاح الديني، له نجومه ومريده في العالم العربي ولعل أبرزهم على الإطلاق الفلسطيني ناجي العلي وأمية جحا اللذان خطّا هذا الفن البجر والدم، ويعتبر محمد عفيفة سليل هذين الاسمين المتحيين رسما على أوضاع عربية وأخرى عالية غيرت تاريخ الإنسانية.



صابر بن عامر  
صحافي تونسي

في إبراز أعماله النحتية بشكّلها العمودي المرتفع والمتسامي عن الأرض في اتجاه السماء، يقدّم الكاريكاتيريسست الفلسطيني الأردني محمد عفيفة رسومه الساخرة بذات التقنية مُنتصبة إلى الأعلى، إلى السماء، إلى الخلود الأبدي.

أكثر من رسمة نجدها على صفحة الفنان محمد عفيفة الفيسبوكية تناولت ثيمة وباء كورونا المستجد على طريقتيه الساحرة والساحرة على أن، منها مثلا تلك التي تصوّر جدار العزل الإسرائيلي، ببرج مراقبة مسلح، سلاحه أصحاب الأرض بيخ من عل فيريوس كوفيد - 19 على الشعب الفلسطيني الأزل.

هنا يصبح السلاح فايروسيا، لا يُيقى ولا يذّر، ليحصد أرواح بشر من جنسية واحدة دون سواها، هم الفلسطينيون المعزولون في أرض اقتطعت منهم غصبا، ليصبحوا هم المُشردين في العراء، وأولئك الغاشمون أصحاب الأرض بقوة السلاح والمعاهدات وصفقة القرن.

ولأن محمد عفيفة سليل شهيد الكلمة والرسم الكاريكاتيريسست المغدور ناجي العلي (1937 - 1987)، نجد في رسمة أخرى استنكارا لحنظلة العلي، عنونها بـ"لا ناجي إلا ناجي"

الكاريكاتير بما هو فن ساخر من فنون الرسم، كصورة تبالغ في إظهار تحريف الملامح الطبيعية أو خصائص ومميزات شخص أو جسم ما، بهدف السخرية أو النقد الاجتماعي أو السياسي أو الفني أو غيره. ذاك الفن الذي له القدرة على النقد بما يفوق المقالات والتقارير الصحافية أحيانا، يأتيها على صفحة فنان الكاريكاتير محمد عفيفة الفيسبوكية، مختلفا شكلا ومضمونا.

أعمال كاريكاتيرية طويلة علي عكس جل الأعمال الكاريكاتيرية المتعارف عليها في الصحافة العالمية أو العربية، والتي تُعدّونا أن تأتينا في شكّلها الأفقي المسطح لتحتمل مكانا بارزا من بيضاء الصفحة - الجريدة، فاللوحة الكاريكاتيرية عند عفيفة، جلهما إن لم نقل كلها، تأتينا بشكل عمودي ينطلق من أسفل إلى أعلى ليكون هذا الأعلى محور اللوحة - الرسمة.

اشتغال عمودي طولي يذكّرنا برائد النحت المعاصر البرتو جياكوميتي (10 أكتوبر 1901 - 11 يناير 1966)، فمما تخصّص النحات السويسري الراحل